الى مؤتمر نواب العرب

لبيك ! لبيك ! فلسطين

للأديب السيد ماجد الأتاسى

إذا كانوا يزعمون أن هـذا العصر عصر الديمقراطيات والحريات والمساواة فى الحقوق والواجبات ، فهو إذن عصر المؤتمرات للأفراد والجماعات والهيئات . والناس يأتمرون من مختلف الأمم ، ويريقون على هذه المؤتمرات عواطفهم وميولهم ، ويفيضون عليها آمالهم ومثلهم ، ويحيطونها بالضجيج وفنون الدعاوة ، فإذا الناس يتحدثون عنهـا إذا أمسوا وإذا أصبحوا ، حين يكتبون ، وحين يخطبون ، وحين يسمرون ، وحين يهذون . وقد تصبح هذه المؤتمرات ملء الدنيا وشغل الناس ، وقد يكون لها نصيب من حق ، وحظ من جمال ، ونَسَم من مثل عليا ، ولـكنها — على هذا كله — تبقى مؤتمرات تضم طائفة من أهل الأرض !

ولـكنها — على هذا كله — تبقى أرضية ، أرضية ! ...

أما مؤتمر العرب اليوم ، دفاعاً عن فلسطين ، فهو نوع آخر من المؤتمرات فذ طريف ؛ من طراز لا عهد لأبناء الأمم الأخرى به ولا قبل لهم بمثله ...

هو مؤتمر برىء كرقصة العجوز ، صادق كصلاة الطفل ، رائع كحلم الحسناء ، شريف كأغنية البطل فى جوف الليل .

هو ، بأهل المشارق والمغارب ، مؤتمر اشتركت فيه الأرض والسماء ! وهل اشتركت الأرض والسماء فى مؤتمر قبل اليوم ؟! .

من يدرى ، أيها المؤتمرون ؟ لعل الأرض لم تتصل مرة بالسماء ، اتصالها بالقاعة التى ضمتكم ، تلك القاعة التى هيأتها الأقدار لتـكون اليوم مهبط الوحى ، ولتـكونوا أنتم اليوم رسل هـذا الوحى إلى العرب والمسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها ! ..

من يدرى ، أيها المؤتمرون ؟ لعل مواكب العرائس من الحور العين كانت تمتد على حفافى طريقكم إلى قاعة المؤتمر مزغردات ، هازجات ، فأنارت على رؤوسكم الفل والياسمين والريحان ، نافحات مواكبكم بأطايب العطور ! ..

من يدرى ، أيها المؤتمرون ؟ لعل أجنحة الملائكة كانت تخفق فى جو القاعة المباركة ، فتنفض عليه النور والقوة ، والهناء والثقة ؛ ولعل أرواح الأنبياء كانت — إذ وطأت أقدامكم عتبتها — تفوح حمداً ودعاء ، احتفالاً برسل الأخوة ، وقيام الدعوة مرة أخرى إلى « حطين » ثانية ! .. آيات من وحى السماء كانت

من يدرى ، أيها المؤتمرون ؟ لعل آيات من وحى السماء كانت تتنزل على شفاهكم حين تكلمت قلوبكم من على المنابر الخاشعة ، فخنس — إذ تكلمت — الشيطان ، وارتعد الأرعن العجلان ، وكبّرت وهللت — إذ تعاهدتم — الأرض والسماء وملائكة الرحمن ! ..

اليوم تأتمرون ، وتصلون لأجل فلسطين ، بابقايا السيوف ، وأحفاد الفاتحين ..

واليوم تتلفت فلسطين المفجوعة ، ترسل النظر الحائر الدامع إلى قبلة الحرم ، ترتقب من قاعة المؤتمر ومضة النور ، ونفحة القوة ، ودعوة الجهاد ؛ وجبل النار ، جبل النار الذى صهرته الشدائد ، وهدته النوازل ، وطهرته الدماء ، واجتاحته النـار ليكون روضة من رياض الجنان ، يرتقب اليوم من مؤتمركم قطرات الندى لزهره الذى ذوي ، وانبعاث الربيع لربعه الذى أقوى ، وانتعاش الحياة فى هيكله الذى يضوى .

اليوم ، تأتمرون ، وتصلون لأجل فلسطين ، يابقايا السيوف ، وأحفاد الفاتحين ! ..

واليوم ، ترنو إليكم — فى إسارها ومحنتها — بضراعة المهان ، وانكسار الذليل ، واستغاثة المصاب ، ابنة عم قيدوها عند صخرة المسجد الأقصى ، ومهد المسيح

اليوم تمد يديها إليكم ، وقد بهرتها الشدائد ، وفدحتها المصائب ، وأجهدها الخطوب ؛ وأبناؤها المدافعون بالأيدى عنها ، يتساقطون - [illegible] نفسى عليهم — بالقرب منها عزلا واحداً بعد واحد ، وزمرة بعد زمرة ، مشردين فى مجاهل المفاوز ، وخوادع السبل ، بين شاب كزهر الصبح معفر الوجه — واحسرتاه — بالرمال ، وشيخ يلفظ النفس فى شعاف الجبال ، وطفل يتضور جوعاً فى الحصار ، وفتاة كالبدر تبكى مروعة فى الأسحار ، وفارس يصبح ويمسى كل يوم فى ميدان ، لحافه السماء ومهاده صهوة الخيل ، وقوته الأعشاب ، يذب عن ثانى القبلتين وأيكة الأنبياء والأقطاب ، وخميلة الوحى والإيمان ، وعروس الأديان

فى كل زمان ؛ يذب عن عذارى العرب المروعات ، يذب عن الأعراض والحرمات، يذب عن الشرف العربى خشية أن يهان، يذب واهباً لله نفسه ، والوطن روحه ، والعروبة ماله ، فاتحاً ذراعيه للقاء العرائس الملوحات له من وراء النظر وقد فتحن له باسمات متوردات أبواب الجنان ، ففاحت عطورها ، وتنوعت زهورها ، وهبت نسائمها ، وصدحت طيورها ، وكبرت وهللت سدنتها يباركون « العريس » الجديد ، يباركون الزائر القادم ، يباركون هذا الجندى الفارس الملثم من جنود صلاح الدين ... !

اليوم تأتمرون وتصلون لأجل فلسطين ، يا بقايا السيوف ، وأحفاد الفاتحين !

واليوم أنتم اليد الملائكية الناعمة ، تمتد فى هدأة الليل ، لتكفكف دموع ذلك اليتيم العربى الهائم على وجهه فى فيافى بئر السبع ؟ يفتش عن جثة الأب الشهيد !

أنتم اليوم قطرات الندى يتساقط فى غلس الفجر على قبور الشهداء فترف على زهرات هذه القبور ؛ تلك الزهرات التى رويت من دم قلوبهم فتفتقت — فى روائها ونضرتها — رمزاً حياً لأمانينا ومثلنا ، رمزاً لأمانى العروبة المجاهدة فى فلسطين !

أنتم اليوم زمجرة الثأر تعصف فتهتز لها طرباً عظام الشهداء الهاجعين فى سفوح الجبال ، وترقص عليها النسوة المروعات فى الأسحار !

أنتم اليوم لمعة النور تومض فى معامى الأفق النائم ، فتهفو لها قلوب المؤمنين الآمنين المحاصرين فى أجواف الدور ، وشعاف الجبال ، فى فلسطين !

أنتم اليوم بسمة الأمل لمن خلف المجاهدون فى فلسطين وراءهم من شيوخ وأطفال ونساء !

أنتم اليوم ، لحن العزاء لهؤلاء الشيوخ المكابدين لواعج الأحزان على حرمات تنتهك ، ونفوس تزهق ، ووطن يستباح، وشعب يموت، وحق يهضم ، لسواد عيون شعب «مدلل» جميل، لسواد عيون الحسان من بنات صهيون !

أنتم اليوم شبح القصاص يطارد ، بعد موهن الليل . بنات صهيون الجررات عند المسجد الأقصى أذيال الخطايا والآثام !

أنتم اليوم حلم الخلاص الجميل يداعب جفون العذراء العربية عند مهد المسيح الغارقة فى غفوة الأحلام ؟

أنتم ... أنتم ... وإن لم يكن بيدكم هذا السوط الذى يهزه اليوم هتلر وموسولينى فى وجههم ... فاذا هم كالأنعام ...

أنتم ... أنتم ... وفيكم اليوم ما يخيف : فيكم تاريخ يثور ، وماض يبعث ، وحاضر يتوثب ، ومستقبل يتوعد ، وعلى لسانكم — فوق هذا وذاك — حق يتكلم

والمجرم ، المجرم ، يا قوم ؛ هو أجبن خلق الله وإن كان أقوى الأقوياء ! هو يحمل اللعنة فى ثيابه ، وإهابه ، ويرن أبداً بين أذنيه صوت القصاص ...

أنتم ... أنتم ... وفيكم اليوم ما يخيف : اليوم يعلمون حق العلم أن هؤلاء الذين أمامهم هم هم الذين عرفوهم ، منذ قرون تحت أسوار أورسليم . واليوم يعلمون حق العلم أن أولئك الفرسان الذين يسابقون الريح فى خطوط النار ، هم هم الفرسان الذى كان يرتفع غبارهم وراء رايات صلاح الدين فى حطين ...

وكل عربى اليوم صلاح الدين . وكل بلد عربى اليوم حطين

أيها المؤتمرون :

أتقولون اليوم : إن فلسطين لأهل فلسطين ، وإن ما يقترف فى فلسطين اليوم دونه مآسى تيمورلنك ، ونيرون ، وجنكيز ؟ أم تقولون إن العرب لن يرضوا بعد اليوم بمظلمة يهودى صهيونى واحد ترى فى فلسطين ؟ ! هذه المظلمة المنتنة التى عافتها أنوف العالمين ، أتقولون هذا ؟ حذار ! حذار ! فالسلم العزيز الرهيف النحيف إذن « يتوعك » والتوازن الدولى الجليل الحساس يختل ويضطرب ، والدنيا تصبح فى خطر ، وأصحاب الضمائر والعهود الصادقة لن يرضوا فى حال من الأحوال أن ينكثوا بعهد قطعوه ، ووعد منحوه على حساب شعب برئ آمن مطمئن !

السلم ، والمدنية ، وحق تقرير مصير الشعوب ؛ كل هذا هو الحسان اللواتى لسواد عيونهن قاموا وقعدوا ، وأرغوا وأزبدوا، يوم حطم موسولينى تحت سنابك خيله أعرق تاج فى ربوع الحبشة

واليوم لسواد عيون هذه الحسان نفسها ، يجلون فى فلسطين شعباً كاملاً عن وطن آبائه وأجداده ليحلوا محله حثالات الشعوب فهم يخربون المدن ، ويقطعون السبل ، ويحاصرون الآمنين ، ويروعون النساء ، ويقتلون الأطفال . كل هذا لأجل السلام ! ووفاء بالعهود والوعود !

أفتدرون ، يا قوم ، ما الفرق ؟

الفرق هو أن يد موسوليني يد قاسية تؤلم إذ تضرب وتوجع .. وأما يدهم فناعمة رهفة ، فهي — إذ تضرب — كأنها تربت وتلاعب وتغازل . .

إذن اضربونا ، اضربونا ما أجمل هذه الأيدي وما أشد نعومتها ! .. وما أحلى ضرباتها ، يامنصفون !

* * *

أيها السلم ، أيها التوازن الدولي ، أيتها المعاهدات والوعود ! أيتها الحسان الزرق العيون ، يا معبودات تشمبرلن ودلاديه خذوني ، وضموني بين ذراعيكم إلى صدركم الجميل ! . .

يا لله ، ما أعجب شأنكن ! أنتن في أحلام الشعراء ، وعلى ألسنة الساسة ، وفي كتب القانون ، تلك « المروحة » أمام وجه الانسانية الثائرة المحمومة ، تخفف عنها وطأة الحر والحمى ! . . أنتن عند هؤلاء رسل الحب والقبل بين الناس . . . وأنتن — في الواقع الملموس — ذئاب تعوي ، وأرانب تفر ، وثعالب تمكر ؛ بل أنتن هذا الثوب الفضفاض الجميل الذي يحيكونه في لندن وباريس ليحجبوا به عن الأعين الدم القاطر من أيديهم ! أنتن — كما قيل — « القفاز الأبيض في اليد الحمراء » ، « أنتن النقاب الخادع يستر الوجه الكاشر ، والطرف الغادر » ، « أنتن حجة ذئب « لا فونتين » يفرضها على الحمل الضعيف » ، « أنتن معاني الظلم والعنف واللصوصية والاغتصاب تختبيء في مصطلحات القوانين ! .. أنتن .. أنتن كل ما بلغت الانسانية ، بعد جهاد قرون ، من قدرة على الكذب والتمويه !

سمعنا ، يا حسان ؛ أن أبا كن ويلسن ، هذا السيامي الطيب القلب سيامي الكتب والأحلام ، قد أقام لكن هناك على ضفاف بحيرة « جنيف » الساحرة مقراً منيفاً ترسلون منه إلى العالم أجمع قبلات الحب والأخوة ، ورسائل السلام والوئام ، وتبعثون منه ، وإلى السماء صلوات المثل العليا ! . .

أيها الطيب القلب ، النائم في هدوء الضمير ،

إسمعنا من هنا ، اسمع أنات عانينا ، ونشجات باكينا ، وضجات جناحنا المهيض .

إسمعنا : إن هذا القصر الذي شدته بيديك الطاهرتين المشبوبتين ليكون هيكلا مقدساً لصلوات نساك الحب والمساواة والسلام . أصبح اليوم حانة من حانات الليل ، تدار فيها خمور الشهوات ، وتدفع بالثملين معربدين في أجواء العالم ، وبقاع الأرض ، عائثين فيها كاشرة أنيابهم ، محمرة عيونهم ، مفتحة خياشيمهم ، معكرين على الانسانية صفوها ، منغصين عليها أحلامها ! . .

أصبح اليوم داراً من دور الميسر تلهو به الأمم الكبيرة لا الأفراد ، و « الروليت » هناك تدور وتدور ، و « القبيش » يرتفع ويهبط ، وهي في هذا الدوران والارتفاع والهبوط تدور معهما وترتفع وتهبط لا أموال الأفراد ، ولكن — واحر قلباه — مصائر الشعوب ، ومقدرات الأمم والضعفاء ! . .

أصبح اليوم : سوقاً يأوي إليها تجار الرقيق « بالجملة » « ليتساوموا » فيه ، ويتبادلوا ، ويتهادوا ! . .

أصبح اليوم مأوى للذئاب الخائفين من شرور أنفسهم !

والآن ، أيها المؤتمرون ، إن فلسطين تناديكم .

تنادي المتربعين على عروش الذين كانت تصهل خيولهم ، وتلمع أسنتهم ، ويرتفع غبارهم ، تحت أسوار أورشليم ! ..

فمن يكون اليوم منهم صلاح الدين ؟

من يكون اليوم منهم « المعتصم » لينقذ اليوم ألف عربية بين أيدي الجنود تنادي من وراء قضبان الحديد ، في غلس الليل « وامعتصماه ! » ؟

أيها المؤتمرون ، أيها الملوك ، أيها الأبطال ، أيها الشيوخ أيتها العجائز ، أيها العرب ، أيها المسلمون : صلوا حين تأوون إلى فراشكم وحين تصبحون ، لأجل فلسطين !

صلوا حين تجلسون إلى موائدكم لأجل المتضورين جوعاً في فلسطين !

صلوا حين تجلسون إلى أولادكم لأجل اليتامى المشردين في فلسطين !

صلوا حين تجلسون إلى نسائكم لأجل الأرامل المروعات في فلسطين !

صلوا : لأجل الشهيد العربي المجهول الهاجع بين وكور النسور في جبل النار .

صلوا لأجله : فهناك من تراب النبي حفنة ، ومن البقيع الأطهر قطمة ، ومن الفراديس روضة ، ومن رضى الله بسمة ومن البركان نفحة .

صلوا ، صلوا لأجل الشهيد العربي في فلسطين .

« حمص — سوريا » ماجد الأتاسي